التكريم..

«وسيبقىٰ في كل عصر، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، دعاة ثابتون عاملون فقهون، ظاهرون علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم»

تجاهله وطنه الذي عشق ترابه، وتآمر عليه العلمانيون والتنويريون ومعاشر الماركسيين الذين كانوا- وما يزالون- يتولون أزِمَّة الثقافة في مصر، مجسِّدين البلطجة الفكرية في أحطّ صورها ومعانيها.

فإن كرَّموا أحدًا بداعي جهوده في خدمة الإسلام، فإنما يختارون أصحاب الاتجاهات التنويرية الشاذة التي تُسيء إلىٰ الإسلام أكثر مما تخدمه، والمقام يضيق بذكر هؤلاء الذين حصلوا علىٰ جوائز عن جهودهم في التقعيد لموضوعات تافهة شاذة، من قبيل فقه الجنائز والطهارة والمراحيض.

حتىٰ الأزهر الذي تعلَّم فيه وأحبَّه، لم يحظ منه بتقدير، ولو يسيرًا، رغم علاقاته المتشعبة بكثير من رموزه أمثال الدكتور احمد الطيب- الشيخ الحالي للجامع الأزهر- والدكتور علي جمعة- المفتي السابق للديار المصرية- وغيرهما من الرموز الدينية، وبلغت علاقته بالشيخ الطيب أنه كان يذهب إلىٰ ساحتهم بالأقصر فيقيم أيامًا في ضيافة آل الطيب، ولقد سمعته بأذني يعاتب الشيخ في مكالمة تليفونية، كان مما قال: «إنك تحب الأزهر من دون الله، والذين آمنوا أشد حبًا لله، وعليك

أن تتلقىٰ النقد الموجه إلىٰ المؤسسة بصدر أكثر رحابة»، وعلمتُ بعد ذلك أنه كرر هذا الكلام في مكتب شيخ الأزهر نفسه أثناء زيارته وبرفقته بعض الأتراك.

أما جمعة فقد ربطت بينهما علاقة طويلة عندما كان يعمل محاسبًا ماليًا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية، وذلك قبل أن يُعيَّن بجامعة الأزهر، وأذكر أنه اتصل به في ليلة يسأله في المسألة الأرمينية، فشرح له مولانا المسألة بإسهاب شديد، وقبل ذلك كانت لهما جهودٌ مشتركةٌ منها موسوعة علمية حول (مصطلحات علوم القرآن).

سألته مرةً عن عدم مشاركته في فعاليات وزارة الأوقاف، فأشار إلىٰ علاقته المتوترة مع الدكتور محمود حمدي زقزوق- وزير الأوقاف آنذاك- بسبب من الاختلاف الفكري بين الرجلين، إذ ينتمي عويس إلىٰ مدرسة المحافظين، علىٰ حين يعدّ الآخر نفسه ضمن التنويريين.

والحق يُقال إنه كان هناك اتجاه داخل وزارة الأوقاف أثناء تولي الدكتور طلعت عفيفي وزارة الأوقاف لتكريم اسم الدكتور عويس، لكن الأحداث التالية أطاحت بآمال أهله ومحبيه، وليظل التكريم والاحتفاء مقتصرًا علىٰ أقلام بعينها، وأفكارٍ لا يُراد لسواها الظهور والانتشار.

وفي العام 2011م الذي تُوفي فيه اتصل تلميذه النجيب الأكاديمي والأديب السوداني البروفيسور جمال نور الدين؛ لينقل إليه رغبة الرئيس السوداني الفريق عمر البشير في تكريمه، ومنحه وسام العلوم،

لجهوده العلمية والفكرية في خدمة الدعوة الإسلامية.

تلقَّىٰ الرجل الدعوة بفرحةٍ لا مثيل لها، وسرعان ما صدرت الأوامر للصديق محمد الحداد بشراء الهدايا التى سيصحبها في رحلته، وطلب هدايا ثمينة جدًا، فقلت: يا مولانا؛ أُحسُّ أنك الذي ستُكرِّم السودان ورئيسه وليس العكس، فابتسم ابتسامته المعهودة، وقال : لابد أن نُكرِمَ الناس كما أكرمونا باختيارهم لنا.

اتصلت الرئاسة السودانية تطلب إحاطتهم بأسماء الضيوف الذين سيصحبونه في سفره لحضور التكريم، فاقترح عدة أسماء منها: الدكتور محمد عمارة، والدكتور أحمد عمر هاشم، والدكتور راغب السرجاني، والدكتور عمرو خالد، والدكتور محمد أبو ليلة، والكاتب والمفكر التركى إحسان قاسم، والدكتور الجراح عبد الله عيَّاد زوج الدكتورة استشهاد البنا، والدكتور محمد حمزة وكيل وزارة التعليم العالي.

لبَّىٰ الدعوة هاشم، وأبو ليلة وحمزة وعيَّاد، وجاء الأستاذ إحسان من تركيا خصيصًا لتهنئة صديقه، واعتذر الباقون، وصحبتُه مع زوجته والحدَّاد.

في تلك الأيام اشتدت وطأة المرض علىٰ الدكتور بحدة مخيفة، فكنتُ أنظرُ إلىٰ وجهه الشاحب وجسمه النحيف، فتُرجّع ذاكرتي صدىٰ الأيام الخوالى، حيث صورته مِلءَ السمع والبصر، تتبعه الأناقة أينما كان، وتسبقه بهجة العلم وإشراقة الوجه وذلاقة اللسان، طالما غالبتنى دموعى وتألمت لأستاذي وأنا أراه يتألم من شدة المرض، فلا يزيد عن قوله: «**يا لطيف، أنا عبدك الضعيف**».

***

حانت ساعة السفر، لكن مولانا لم يخرج من بيته إلىٰ المطار كما اعتاد في سفراته العديدة..

خرج من مشفىٰ بضاحية مصر الجديدة، بعد عدة أيام من العلاج تحت إشراف بعض الأطباء الذين كانوا يسابقون الزمن، لا سيما بعد أن صارت الغيبوبة الكبدية تداهمه بشكل متكرر.

وصلنا السودان وسط حفاوة وترحاب شديدين، والحق إن الأشقاء السودانيين كانوا أكثر وُدًا ولطفًا، وأكثر تقديرًا لعلم الرجل ومصريته، وهذا ما لمسناه بأنفسنا في الأيام القليلة التي مكثناها ضيوفًا عليهم.

وصلنا الفندق فكانت المفاجأة!

بانتظارنا شخصٌ عزيزٌ علىٰ نفس مولانا، فما رآه حتىٰ ابتهج وفرح، وسرعان ما دمعت عيناه، عندما وجد نفسه حبيس كرسى متحرك كان بمثابة سجنٍ متحركٍ، ولا قوة له علىٰ الوقوف للترحيب بالأستاذ إحسان.

***

في المساء دُعينا إلىٰ حضور ندوة شعرية لأحد الشعراء من دولة شقيقة، لبَّىٰ الجميع الدعوة شاكرين، وكنت منهم، وما هي إلا لحظات حتىٰ صعد الشاعر مِنَصَّته ليلقي علينا بعض قصائده.

الرجل مُمسك بديوانه يقرأ بعض قصائده..

يا إلهى، ها هو يتحسس كلماته كأنه لم يقرأها من قبل، يتهجي المفردات كأنها لم تجر من قبل له علىٰ قريحة أو لسان!

يقرأ شعره كما لو كان يقرأ لغة قوم لا عهد له بها من قبل..

أصابني الدوارُ أو كدتُ..

وانتهىٰ الرجل وسط تصفيق حاد من الحضور... لا عجب؛ فهو لم يأت وحده، وإنما صحبته جوقة قاربت العشرين رجلا وامرأة،

لكن ما أحزننى أن أحد الأساتذة الأكارم من الحاضرين طُلب منه أن يتحدث عن رؤيته لشِعْر الرجل، فقام- وكان شاعرًا وخطيبًا مُفوَّهًا- فتحدث عن إحساس الشاعر ولغته الشعرية العالية، وأفكاره التي لا مثيل لها في ديوان العرب..إلخ

أخذت حرارتي في الارتفاع، فما يقوله لا يصدُق بحال علىٰ هذا الغثاء الركيك المسمىٰ مجازًا بالشعر!

لم يتوقف الرجل عند هذا الحدِّ، بل اختتم كلمته قائلا: واسمحوا لي يا سادة أن أقول في شاعرنا ما قاله حافظ إبراهيم لأحمد شوقي:

أميرَ القوافي قد أتيتُ مُبايعًا وهذي جموعُ الشرقِ بايعتْ مَعي

عندها بلغتْ روحى الحُلقوم، وشككتُ في نفسى إن كنتُ قد حصلتُ علىٰ شهادتي في اللغة العربية وآدابها، أم في تخصص آخر.

انتهت الأمسية اللاشعرية، وسارعت إلىٰ صاحبنا إياه، فسألته:

- إيه رأي حضرتك بصراحة في الشاعر ده؟

- والله شاعر علىٰ قَدِّ حاله (يعني دون المستوىٰ)

- فلِم كل هذه الحفاوة، ولِم قلتَ فيه ما قاله حافظ في شوقي وهو لا يستحق!

هزَّ الرجل رأسه، ومطَّ شفتيه، ثم قال: والله الرجل أحرجني اليوم بعد أن أهداني ساعة **Rolex** سويسرية باهظة الثمن.

لقد كان الشاعر رجل أعمال!

***

جاء يوم التكريم، واستعد الجميع لمغادرة الفندق.

كان مولانا قبل أن نبرح القاهرة طلب أن أكتبَ كلمته التى سيُلقيها أمام الرئيس البشير، فنشطتُ حتىٰ أنجزتها، فراقَتْ له، ثم عدَّل بعض الكلمات وزاد عليها، فلمَّا كانت ليلة التكريم طلب الورقة فأعطيتُه إياها، وعندما حان وقت إلقاء كلمته نحَّىٰ الورقة جانبًا، وجعل يرتجل وسط انبهار الرئيس السوداني وجميع الحاضرين، والحق أن مناقشات جرت يومها كشفت عن ثقافة البشير العالية واطلاعه الواسع، حتىٰ علىٰ بعض كتب الدكتور عويس، فضلا عن خفة ظلِّ لا نظير لها.

العجيب أننا اكتشفنا بعد ذلك أن الرجل كان يعاني وقتها من بوادر غيبوبة إلا أنه قد تغلب عليها أو كاد.

***

ومن المواقف الجديرة بالذكر فى هذا الصدد ما حدث مع أحد رموز الفكر الإسلامى فى السودان والعالم الإسلامى، وهو شخص ذو ثقافة واسعة ولسانٍ طلق وعبارة بليغة، وحدث أن انتقده مولانا فى إحدىٰ الجلسات العلمية بالحجاز، فحمل عليه كثيرًا، فصارت قطيعة بينهما، وعندما كنَّا نتأهب للسفر إلىٰ السودان، قلتُ له: وماذا عن فلان؟ لابد أن الظروف ستجمع بينكما؟ ألا ترىٰ أن تُطيِّب خاطره وإن

كان هو المخطئ؟!

قال: نعم، بل حريصٌ على مقابلته، والاعتذار إليه رغم تعامله الخشن معي.

منذ وصلنا السودان ومولانا دائم السؤال عن هذا الرمز الفكرى، حتى جاء اليوم الذى ذهبنا لحضور ندوة بالخرطوم، وما إن دخلنا المبنى المخصص للندوة حتى تفاجأنا بالرجل أمامنا.. كان بالفعل يمشي مزهوًا ..

كالطاووس!

سامح الله من خلع عليه هذا اللقب، فقد جاء معبِّرًا عن هيئة الرجل بدقة متناهية.

لم يره الدكتور عويس- الذى كان جالسًا على كرسيه الطبىّ بعد أن أنهكه المرض- لكن الرجل تجاهله كأنه لم يره.. لم يرقّ لحاله ومرضه..

فى هذا الوقت كان يُلحُّ فى السؤال عنه.. فقلت أنا والحداد: سنحاول الاتصال به لزيارته إذا كان هنا فى السودان.. لم تك تفصلنا عنه إلا بضعة أمتار قليلة.. تذكرت حينها قول مولانا عنه قبل ذلك: «مسكين، يشقى بنفسه!».

***

تجهَّزنا للعودة إلى مصر فى اليوم التالي للتكريم، إلا أن مفاجأة غير سارة حدثت اضطرتنا إلى التأجيل.

مرض مولانا، وأدركته الغيبوبة الكبدية مرة أخرى.

تم نقله إلى مشفى تخصصى، وأُدخل إلى العناية الفائقة، وعدنا أدراجنا إلى الفندق، وعلم أحد الموظفين المصريين بالمشفى- واسمه أحمد خميس- أن مصريًا موجود لديهم، فهرول إلى نجدته، وكان قد بدأ في الإفاقة رويدًا رويدًا.

ويبدو أن خميس لمَّا لم يجد أحدًا منا بجواره ظنَّه وحدَه في السودان؛ فأسرع إلى الحسابات ليدفع مبلغًا تحت الحساب لعلاجه، فجُنَّ الموظف وصاح فيه: كيف تدفع لرجلٍ وهو ضيف على الرئاسة؟!

تفاجأ خميس وأسقط في يديه، وبلغنا ذلك، فشكرنا له صنيعه، وظل يصحبنا بقية الأيام في المستشفى وخارجها حتى سافرنا.

إنها صورة من شهامة المصريين الحقيقيين الذين لم تُغيِّرهم الأيام.

لم تكن الرحلة كلها صعبة، وإنما تخللتها بعض القفشات التى لم تنمح من الذاكرة رغم تعاقب الأيام والليالى، فبينما كنا نجلس في بهو فندق**Coral Khartoum Hotel** إذْ به يناديني- وكان في شبه غيبوبة- ويطلب مني طلبًا عجيبًا!

- ناديني الأخ الأسمر ده.

نظرت فإذا الإخوة السودانيون كلهم سُمر البشرة، فقلت: مين بالضبط يا أستاذنا؟!

فكرر ما قاله وقد بلغ به الغضب منتهاه: بقولك الأخ الأسمر ده يا أخي!

لم أجد بدًا من الذهاب والإتيان بأحدهم، فكان الأديب الدكتور جمال نور الدين، وبفضل الله كان هو المقصود.

وفي عشاء علىٰ شرفِ مولانا ببيت وزير الدولة السوداني للثقافة (على مجوك) سألوه إن كان يريد حلوىٰ معينة أم يأكل طبق (أم على)، ويبدو أنه تذكر خادمته الوفية (أم أمل) فأجابهم بسرعة: لأ عايز أم أمل!

فضحك الجميع حتىٰ الثمالة...

رحمك الله مولاي.

في ظل شجرتين..

«وما كان لي أن أتزوج ثانية دون أن تأذنَ هي لي»

قليلا ما يصدق القول بأن وراء كل رجل عظيم امرأة، أو أن وراء كل قصة نجاح امرأة، إلا أن ذلك يصدق تمامًا علىٰ هذه المرأة التي ارتبطت بمولانا عدة عقود، زوجةً ومربيةً مثقفةَ الفكر.

إنها الزوجة الأولىٰ له وأم أولاده، السيدة سعاد الواقدي عليها رحمة الله..

هي من نِعَم الله التي أنعمها عليه، صغرتْهُ بعدة سنوات في كلية دار العلوم، وكافحت معه بدءًا من السفر إلىٰ الكويت، وحتىٰ العودة من السعودية بعد نحو عشرين عامًا من الإقامة هناك.

امتازت بقدر وافر من رجاحة العقل والرزانة والاعتزاز بالنفس، فاعتمد عليها كثيرًا في إنجاز بعض أعماله، ومراجعة مقالاته، وإبداء الرأي فيها؛ نظرًا لتكوينها اللغوي والشرعي، بل كان يلجأ إليها في بعض المسائل العلمية التي لا تسعفه بها ذاكرته، باعتبارها نتَاج دار العلوم... تلك الدار العريقة التي حملت لواء الثقافة والفكر الإسلامي منذ نشأتها الأولىٰ.

ولعل أهم ما انمازت به عفة اللسان، وقلة الخُلطة والكلام، والتنظيم إلىٰ أقصىٰ درجة ممكنة.